خطبة صلاة الجمعة 14/ 7/ 2017 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(مهنة الوظيفة العامة –2–)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: 105].

وقال سبحانه: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ [الأنبياء:94].

أخرج البخاري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَاماً قَطُّ خَيْراً مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ**» [البخاري].

وأخرج البخاري ومسلم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**مَن يُرِد الله به خيراً يفقِّهه في الدِّين**».

هذه هي الخطبة السادسة عشرة في سلسلة (مهنتي: فقهها وآدابها)، وفيها متابعة للحديث عن **مهنة الوظيفة العامة –2–**.

وقد أجابت خطبة الأسبوع الماضي عن بعض مسائلكم الفقهية المتعلقة بالوظائف العامة وتجيب خطبة اليوم عن أسئلة مرجعها مادة فقهية قانونية أخلاقية وسياسية واحدة إنها: **الرشوة**.

– أنا ذو مركز وظيفي مرموق؛ أتلقى هدايا من بعض الناس في مناسبات رسمية وخاصة، علماً أنه لا صلة رحم ولا صداقة بيني وبينهم؛ فهل بوسعي أن أقبلها منهم أو يعد ذلك رشوة؟

– يدفع لي بعض المراجعين مبالغ مالية عن طيب خاطر، ومن دون طلب مني، وذلك بعد إنجاز معاملاتهم رغبةً منهم في إكرامي فهل يعد قبول هذه المبالغ رشوة في حكم الشرع؟

– أبذل جهداً في بعض المعاملات التي تمر بين يدي في وظيفتي فهل لي أن أطلب من صاحبها تعويضاً عن هذا الجهد؟

– يمتنع بعض الموظفين عن توقيع معاملاتي الصحيحة فلا يمرروها إلا برشوة، تصريحاً أو تلميحاً، تحت مسمى الهدية أو الأتعاب، فهل يحل لي إعطاؤهم ما يطلبون؟

أيها الإخوة:

الرشوة مثلثة الراء، وهي لغة المحاباة والوصلة إلى الحاجة بالمصانعة.

والرشوة اصطلاحاً: ما يُعطى لإبطال حق أو لإحقاق باطل.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 188]. ومِن أكل أموال الناس بالباطل الرشوة.

وقال سبحانه في حق بني إسرائيل: ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (62) لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: 62، 63] ومن السّحت الرشوة.

أخرج الترمذي عن أبي هريرة وعبد الله بن عمر رضي الله عنهم قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لعنة الله على الراشي والمرتشي**».

وعند أحمد بمعناه من رواية ثوبان، وزيادة: "والرائش"، أي الساعي بينهما يستزيد هذا ويستنقص هذا.

وفي صحيح البخاري باب هدايا العمال، ساق بسنده «استعمل النبيُّ صلى الله عليه وسلم رجلاً من الأَزدِ يقال له: ابن اللُّتْبِيَّة على الصدقة، فلما قَدِم قال: هذا لكم، وهذا أُهدِيَ إليَّ، قال: فقام رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، فَحَمِدَ الله وأثنى عليه، ثم قال: **أما بعدُ، فإني أستعمل الرجل**

منكم على العمل مما ولاني الله، فيأتي فيقول: هذا لكم، وهذا هدَّيةٌ أُهديت لي، أفلا جلس في بيت أبيه، وأُمه، حتى تأتيَه هَدِيتُهُ إن كان صادقاً؟ واللهِ لا يأخذ أَحدٌ منكم شيئاً بغير حَقِّه إلا لَقيَ الله يحمله يوم القيامة، فلا أعرِفَنَّ أحداً منكم لَقيَ الله يَحْمل بعيراً له رُغَاءٌ، أَو بقرة لها خُوارٌ، أو شاة تَيْعَرُ، ثم رفع يديه حتى رُئيَ بياضُ إِبطَيْهِ، يقول: اللهم هل بلغت؟».

وعند أبي داود قال: باب في هدايا العمال وساق بسنده أن رسول لله صلى الله عليه وسلم قال: «من استعملناه منكم على عملٍ، فَكتَمَنَا مِخْيَطاً فما فوقه، كان غُلُولاً، يأتي به يوم القيامة. قال: فقام إليه رجلٌ أسودُ من الأنصار، كأني أنظر إليه، فقال: يا رسول الله، اقبَل عَنِّي عملك؟ قال: ومالك؟ قال: سمعتُك تقول كذا وكذا، قال: وأنا أقوله الآن: من استعملناه منكم على عمل فَلْيَجئْ بقليله وكثيره، فما أُوتِيَ منه أَخذَ، وما نُهيَ عنه انتهى».

وفي سنن البيهقي بسنده عن أبي حميد الساعدي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هدايا الأمراء غلول».

والغلول جمع غل، وهو الطوق في العنق، وذلك إذا كانت ممن لم يهدِ إليه من قبل، أو كان لا يكافئ عليها، وكذلك ما أهدي لأهل العامل أو الوالي.

وروى البيهقي بإسناده: أهدى رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم -وكان من عمال عمر بن الخطاب رضي الله عنه - نمرقتين لامرأة عمر رضي الله عنه؛ فدخل عمر فرآهما فقال: (من أين لك هاتين، اشتريتيهما؟ أخبريني ولا تكذبيني!) قالت: بعث بهما إليّ فلان، فقال: قاتل الله فلانا إذا أراد حاجة فلم يستطعها من قبلي أتاني من قبل أهلي؛ فاجتذبهما اجتذابا شديدا من تحت من كان عليهما جالسا، فخرج يحملهما فتبعته جاريتها فقالت: إن صوفهما لنا ففتقهما وطرح إليها الصوف، وخرج بهما فأعطى إحداهما امرأة من المهاجرات وأعطى الأخرى امرأة من الأنصار).

وروى عن عمر بن عبد العزيز أنه اشتهى يوما التفاح فلم يجد ما يشتري به من ماله، وبينما هو سائر مع بعض أصحابه أهديت إليه أطباق من التفاح؛ فتناول واحدة فشمها ثم رده إلى مهديه، فقيل له في ذلك، قال: (لا حاجة لي فيه)، فقيل له: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقبل الهدية، وأبو بكر وعمر! فقال: (إنها لأولئك هدية وهي للعمال رشوة).

وروى مالك قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعث عبد الله بن رواحة إلى خيبر فيخرص بينه وبين يهود خيبر، فجمعوا له حلياً من حلي نسائهم، فقالوا: خذ هذا لك وخفف عنا وتجاوز في القسم، فقال عبد الله بن رواحة: يا معشر اليهود والله إنكم لمن أبغض خلق الله إلي، وما ذاك بحاملي على أن أحيف عليكم! أما ما عرضتم من الرشوة فإنها سحت وإنا لا نأكلها، فقالوا: بهذا قامت السموات والأرض.

أيها الإخوة:

لئن كانت الرشوة محرمة وكبيرة، فإن العلماء حذروا تحذيراً شديداً من تسمية الرشوة باسم الهدية؛ لأن من أكلها عالماً بها أنها رشوة مستحلاً إياها فإنه يخشى عليه الكفر؛ لأنه يدخل في عموم من استحل ما علم تحريمه بالضرورة.

وقد وجدت فيما قرأت خمسة فروق بين الهدية والرشوة:

1- الهدية تؤلف القلوب وتورث المحبة، بينما توقع الرشوة الضغائن والأحقاد.

2- يبذل المهدي الهدية عن طواعية ومحبة، بينما يدفع الراشي الرشوة مكرهاً ملجأً.

3- لا يخفي المهدي هديته بينما يخفي الراشي رشوته.

4- قد يكافأ المهدى إليه على الهدية إن عاجلا أم آجلا، بينما لا يفعل ذلك المرتشي.

5- تطمئن نفس المهدي والمهدى إليها لقبول الهدية وبذلها، بينما تضطرب نفس الراشي والمرتشي. ففي الحديث: «**الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ وَاطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي النَّفْسِ وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ**» [أحمد].

قسّم العلماء ما يقال أنه هدية من حيث حكمها إلى ثلاثة أقسام: حلال من الجانبين وحرام على الجانبين وحلال على طرف حرام على الآخر:

أما الحَلَال مِنْ الْجَانِبَيْنِ فكَالْإِهْدَاءِ لِلتَّوَدُّدِ. وَأما الحَرَام على الْجَانِبَيْنِ فكَالْإِهْدَاءِ لِيُعِينَهُ عَلَى الظُّلْمِ، وأما الحلال على طرف حرام على الآخر فَهُوَ أَنْ يُهْدِيَ لِيَكُفَّ عَنْهُ الظُّلْم أو ليدْفَعُ الْخَوْفِ عَلَى نَفْسِهِ وَمَالِهِ أو ليصل إلى حقه الذي لا يعطاه إلا برشوة فهذا حَلَالٌ لِلدَّافِعِ حَرَامٌ عَلَى الْآخِذِ.

قيل لوهب بن منبه: الرشوة حرام في كل شيء؟ فقال: إنما يحرم من الرشوة أن ترشي لتعطى ما ليس لك أو تدفع حقا قد لزمك.

جاء في تحفة الأحوذي على سنن الترمذي عند حديث أبي هريرة في لعن الراشي والمرتشي قال: فأما ما يعطي توصلا إلى أخذ حق أو دفع ظلم فغير داخل فيه.

أيها الإخوة:

أرسل لي بعض الإخوة مشكورا قصة مؤثرة يرويها الدكتور علي الوردي أستاذ علم الاجتماع في جامعة بغداد :

يقول الدكتور: بعد أن هبطت بنا الطائرة في رحلةِ العودة إلى بلدي ركبت سيارة الأجرة.

وفي أثناء الطريق أخذت أتجاذب أطراف الحديث مع صاحب التاكسي، فوجدت في حديثه ثقافةً واضحةً، وفي أسلوبِهِ رصانةً واتزانا، وفي قسماتِ وجهِهِ نضارةً، وفي ابتسامتِه رضاً وسعادة. فقلت له: اصدقني القول يا أخي في التعريف بنفسك.

فنظر إليَّ الرجلُ بابتسامةٍ وأشار بيده إلى عددٍ من المباني الشاهقة على يمين الطريق، وقال لو أردتُ أن تكون كلُّها وأضعافُها ملكاً لي لكان ذلك.

...لقد كنتُ مديراً للشئون المالية في أكبرِ الوزارات في هذا البلد، وكانت المشاريعِ والمناقصات وغيرها لا تعتمد إلا بعد توقيعي.

فكنتُ دقيقاً في استيفاءِ كافةِ الشروطِ والضوابطِ لقبول أيّ معاملة، ولا يمكن التنازلُ عن هذا المبدأ أيَّاً كانت المبررات، فأنا أعلم أن وِزرَ هذا الشعب سيتحمله كلُّ موظف خان أمانتَه، وأنَّ دعاء الملايين على من فرَّط في حقوقه سيصل عاجلا أو آجلا... لقد تعرضت لمضايقاتٍ عديدة، وضغوطاتٍ كثيرة، وصل بعضُها إلى حدِّ التهديدِ المبطَّن، فلم ألتفت لذلك، وثبتُّ على المبادئ والقيمِ التي آمنت بها.

ومرَّت بي لحظاتُ ضعفٍ أمام تلك الضُّغوطاتِ وإلحاحِ الزوجةِ والأولاد، واحتياجاتِهم الحياتية؟ فكان إيماني بربي مقسم الأرزاق وحرصي على ألا أدخل إلى جوف أبنائي الحرام وتمسكي بقيمي ، وعلمي بأن الله يبتلي عباده بالفقر والغنى، وبأن من ترك شيئا لله عوضه الله خيراً منه، كان كل ذلك معينا لي على الثبات.

قال الدكتور: وقبل أن نصل إلى منزلي ختم الرجل حديثه قائلا بعد سنوات أمضيتُها في عملي، تقاعدت واشتريتُ بحقوقي هذا التاكسي، وأنا واثق بأنَّ الله عزّ وجل سيعوضَنِي خيراً مما تركتُه، وسيحفظَنِي بحفظه، ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم «احفظ الله يحفظك» [الترمذي] وقد واللهِ حفظني ربِّي في نفسي وولدي، فأنت أخي رأيتَ ما أنعم اللهُ به عليَّ من الصحةِ والقوةِ ونضارةِ الوجه كما سمعتُهُ منكَ.

وكما حفظ اللهُ لي صِحتي فقد حفظني كذلك في أولادي: فأولادي – ولله الحمد والمنَّة – قد تخرجوا في الجامعات بتفوق، وجُلُّهم يحفظ القرآن أو على وشكِ حفظِهِ، وبيننا من المحبةِ والألفةِ والإيثارِ والترابُطِ ما أعجزُ أن أصِفَهُ لك.

وفي القريب العاجل بإذن الله سوف أُودِّع هذه الحبيبة – سيارتي التاكسي – فقد ألحَّ أولادي عليَّ كثيراً بالترجُّلِ من على صهوتها، بعد أن تحسَّنت أحوالُهم، وارتفع دخلُهُم، فقد فهمتُ أنَّهُم يريدون إراحتِي ليبرُّوا بي، ويقوموا على خدمتي، وأنا أرغب في أن أُتيح لهم الفرصةَ ليجِدوا بِرَّ أولادِهم.

قال الدكتور: بعد وصولنا أوقف الرَّجلُ سيارته، ونزل واتجه يريد حملَ حقيبتِي، فأسرعتُ الخطى وسبقتُهُ إليها وحملتها وكُلِّي حياء وخجل من نفسي عندما سمحت له بحملها عند المطار، ثم مددت إليه يدي وأعطيتُهُ أُجرتَه، فأخذها ووضعها في جيبه ولم يتأكد من عدِّها، وركب سيارتَهُ وألقى عليَّ السلامَ مودِعاً، فلم أستطع أن أرُدَّ عليه وداعَهُ خشيةَ انكشافِ أمري وتفجُّرِ دموعي.

يقول الدكتور علي... لقد تعلمت وأنا الأستاذ المشارك في الجامعة : أنَّ من يملك التأثير والتغيير في الآخرين هم الصادقون المتوكلون على ربِّهم، الثابتون على مبادئهم.

أيها الإخوة:

– الموظف ذو المركز الوظيفي المرموق؛ لا يحل له أن يقبل الهدايا في مناسبات رسمية وخاصة، إلا ممن له معه سابقة عهد بالهدية لرحم أو صداقة، إذ لا تخلو هديتهم من رائحة رشوة.

– والموظف الذي يدفع له بعض المراجعين مبالغ مالية عن طيب خاطر، ومن دون طلب منه، بعد إنجاز معاملاتهم، له قبولها إن كان قادراً على أن يكافأهم بهدية مثلها وإلا فلا يحل، فإن وضعوها ومضوا فليتصدق بها في المصالح العامة.

– والموظف الذي يبذل جهداً في بعض المعاملات التي تمر بين يديه في وظيفته ليس له أن يطلب من صاحبها تعويضاً عن هذا الجهد. إذ إنه يتقاضى التعويض من الجهة التي وظفته.

– ومن منعه بعض الموظفين حقه في توقيع معاملاته الصحيحة فلم يمرروها إلا برشوة، جاز له إعطاؤهم وحرم عليهم أخذها لأنهم يأكلون سحتا وناراً. والله أعلم.

أيها الإخوة:

هذه إجابات على بعض أسئلتكم الفقهية المتعلقة بمهنة الوظيفة العامة، وللموضوع تتمة إن شاء الله، واذكروا أن المطلب الرئيس من كل من يستمع لهذه الخطب أن يُحَكِّم شرعَ الله في مهنته، لئن فعلتَ فأنت تتعبد الله تعالى في مكان عملك تماماً كما تتعبد الله تعالى في مسجدك، وإن لم تفعل فحاول أن تفعل، وابدأ الآن.

والحمد لله رب العالمين